وقعة خيبر

الدكتور محمد عوض الخطيب

مقدمة

لم يأت اختيارنا لوقعة خيبر موضوعاً لبحثنا هذا ، بصورة عفوية ، بل كان سعياً وراء هدف محدد من الأساس . هذا الهدف كان في جوهره اكتشاف مواطن القوة في أمتنا وابرازها للإستفادة منها بمعركتنا الحالية مع الأعداء .

وكنا نعتقد مسبقاً أن مواطن القوة هذه لا يمكن أن نقع عليها إلا بدراسة حالات وضعت فيها الطاقات موضع الإمتحان العسير ، فخرجت الأمة منها منتصرة عزيزة الجانب .

وبقدر أهمية الإنتصار تكون أهمية نقاط القوة والقدرة .
ولهذا فقد توجهنا إلى المعارك التي خاضها الرسول (ص) على رأس القلة المؤمنة ، فحقق الإنتصارات الكبيرة ، لأن تلك المعارك كانت تكشف عن مواطن القوة الحقيقية الصرفة الغير المشوبة بالشوائب .

ومن بين تلك المعارك انتقينا أكثرها نموذجية : معركة خيبر . ففي تلك المعركة تحققت المعجزة ، حيث استطاعت القلة المؤمنة أن تهزم الكثرة المدججة بالسلاح والمتحصنة في القلاع العظيمة التي تتحدى أهم الأسلحة المعروفة آنذاك وبسبب اعجاز وقعة خيبر ، ولكونها منارة أساسية في التاريخ الإسلامي ما زالت متوهجة حتى اليوم وستبقى ، ولأنها الدرس الأساسي الواجب تعلمه واستيعابه في ظروفنا الحاضرة ، لا سيما في معركتنا مع العدو الصهيوني ، فقد اخترنا أن نعرضها بقدر ما نستطيع من الوضوح والدقة ، لعل ذلك يكون له شيء من الفائدة في الحرب المصيرية التي يشنها الأعداء علينا ، فيما تضيع شعوبنا في المتاهات المظلمة لا سيّما في المرحلة الأخيرة التي أعقبت زيارة أنور السادات للقدس ، تلك الزيارة التي دفعت العرب والمسلمين ، شعوباً وحكاماً إلى المأزق ، وأصبحوا يقفون على مفترق مصيري من تاريخهم . هذا

المفترق المتمثل بالموقف بين العدو الصهيوني : أيصالحونه أم يبقون على حالة العداء معه ، بانتظار الغد الآتي ، حيث يقرر الجيل الحالي ، أو تقرر الأجيال المقبلة ما يجب فعله .

ومن هنا فقد وجدنا فريقاً يشد باتجاه المصالحة ويستعجلها ، ولكنه يصطدم بموقف العدو الصهيوني الذي لا يقبل بأن يسمح له بحفظ ماء الوجه ، ولا يثق بقدرته على الوفاء بما يتعهد به . كما وجدنا فريقاً آخر يطرح التسوية « العادلة » التي تعيد إلى الشعب الفلسطيني حقوقه « المشروعة » .

والحقوق المشروعة ، وإن تكن غير واضحة لدى هذا الفريق ، لكن التمسك بها يسمح للعدو بأن لا يقبل التسوية بالمطلق على أساس تحقيقها . ومن هنا فإن موقف الفريق الثاني يؤجل إتخاذ الخطوة الحاسمة إلى الغد حيث يتقرر إما القتال أو اللاقتال .

والقتال سيكون إما من أجل تحسين شروط التسوية بشكل أو بآخر ، وإما من أجل تحرير الأرض الفلسطينية من الرجس الصهيوني بما يستلزم ذلك من شروط خاصة .

وأما اللاقتال فقد يعني تسليماً للعدو في ظروف أكثر اقناعاً ، أو بالأصح أكثر تيئيساً للشعب وإما ارجاءً جديداً لاستحقاق الاحتمالات .

ومن هنا فإن الدروب المتعددة ، التي تنطلق من المفترق المذكور ، والتي تبدو متشعبة ومتشابكة ، تعود في نهاية التحليل إلى إثنين لا أكثر : درب يتجه صوب التسوية ودرب يتجه صوب التحرير .

فأما المتجه صوب التسوية فهو طريق واسع جداً ومتشعب ، تسير عليه الأنظمة ، فتتفق وتختلف وتقتتل وتتصالح ، وكل هذا يدور حول الوسائل وحول التفاصيل ، حول المطلوب من العدو أن يتنازل عنه وحول الأسلوب العملي للحصول على هذا التنازل .

وأما ذاك المتجه صوب التحرير فهو شبه طريق ممحيّ المعالم ، يكاد لا يُرى ، يمر في الأرض الوعرة الخطيرة المسالك ، وهو طويل جداً على ما يظهر ومتعرج حتى يكاد يكون لولبياً ، وهو مكلف حتى ليبدو أكبر من الطاقات ولهذا فقد عزفت الأنظمة عن سلوكه واختارت الطريق الأول على ما يبدو .

ولكن الأنظمة ليست معزولة عن كل قطاعات الجماهير في اختيارها هذا ، بل أن الأكثرية يبدو أنها يئست ولم تعد ترى حلاً غير هذا الذي اختارته الأنظمة لأنها اقتنعت بعد « التجربة » بعدم جدوى القتال وبعدم إمكانية التحرير .

والتجربة هي تجربة الأنظمة التي لم تعُد للمواجهة العدة الحقيقية ، بل اختارت الأسلوب الأسهل ، أسلوب الحرب الكلامية الشديدة ، وفي حالات نادرة ، تجربة القتال الكلاسيكي ، الذي تعلموه أساساً في المعاهد الأجنبية ، ثم نقلوه إلى معاهدهم مع شيء من

التشويه والتبسيط في الغالب . هذا القتال لم يستوردوا فقط فنونه وتقنياته ، بل هم نقلوا معه أفكار مصدّريه وعقائدهم . فكانت النتيجة فشلاً وإفلاساً على كل المستويات . وهي النتيجة التي دفعت بكثير من الناس على طريق مهادنة العدو ومصالحته .

ولكن معطى جديداً برز . هذا المعطى « المفاجيء » تمثل بالمقاومة الشعبية للعدو ، تلك المقاومة التي أربكت حسابات الأنظمة في البداية .

غير أن ذاك الارباك لم يدم طويلاً ، وما لبثت المصالحة بين تلك المقاومة والأنظمة أن فرضت نفسها لأن الطريقين ينتميان إلى نفس المدارس الفكرية أساساً . وأدت تلك المصالحة إلى تقوقع المقاومة وتحولها إلى نظام من تلك الأنظمة . وهي ان اختلفت معهم أو مع بعضهم أحياناً ، فهو خلاف حول حصولها أو عدم حصولها على دور في العملية . ذاك أنها ترفض أن يجري تجاهلها ، فتتحقق التسوية دون مشاركة منها فتكون حصتها زهيدة .

ولكن مقاومة أخرى ما لبثت أن انبعثت من جديد ، وهي تحاول أن تخط طريقاً جديداً ، متسلحة بفكر جديد . فكر لا يلتقي مع « ثقافات » الأنظمة ولا « ثقافات » معارضيها من الطراز التقليدي .

ولأنه فكر جديد ، فهو سيؤدي إلى نتائج مختلفة . ولكن أية نتائج ؟

النتيجة الأولى : هي استحالة التوفيق بين هذا الفكر الجديد الذي تحمله المقاومة الجديدة ، وبين الفكر المنشور والمتبنى بشكل أو بآخر بين الأنظمة ، وهذه ضمانة أولية ، تستمر ما استمر هذا الفكر .

والنتيجة الثانية : هي استحالة المصالحة مع العدو ، لأن هذا الفكر يتناقض تناقضاً كاملاً مع فكر العدو ، بينما يلتقي الفكر المنشور مع فكر هذا العدو ، بل هو لاحق لفكر العدو ، لأن الفكر المنشور إما غربي مشوه وإما شرقي مشوه . والغربي المشوه يقصر عن الفكر الغربي الذي تتبناه الأكثرية في الكيان الصهيوني . أما الشرقي المشوه ، فهو يلتقي مع الشرقي السائد في هذا الإتجاه .

ولكن تبقى هناك صعوبتان على الأقل :

الصعوبة الأولى : تتعلق بتجذُّر هذا الفكر ، الفكر الجديد الذي تحمله المقاومة الجديدة ، فهو إذا كان متجذراً إلى درجة كافية ، فأنه سيستمر ، ولا يمكن لأي فكر آخر أن يطرده ليحل محله . أما إذا لم يكن كذلك فهو سيخلي المجال لفكر آخر يتمتع بدرجة معينة من الجدية .

والصعوبة الثانية : تتعلق بمسألة الإستجابة لهذا الفكر من الناحية الأفقية ، أي من قبل الجماهير العريضة . فهذا الفكر إن كان غريباً عن الشعب بأكثريته الساحقة ، فهو سيبقى

محصوراً متقوقعاً ، وربما مات أصحابه فمات معهم . أما إذا كان هذا الفكر أليفاً في البيئة فهو سيعم وينتشر ، لأنه سيعاد اكتشافه بسهولة من قبل الجميع .

فالفكر السابق اصطدم بهاتين الصعوبتين ففشل . فهو لم يتَّجذر ولم يكن يستطيع ذلك ، ولهذا كان الإضطراب العقائدي والتبدلات الفكرية كل عشر سنوات تقريباً ، من الفكر « القومي » إلى الفكر الماركسي ، إلى الفاشي إلى الليبرالي ، وذلك أحياناً في المؤسسة الواحدة .

وهو لم ينتشر ، وعاش في غربة عن جماهير الشعب بالمطلق ، وكان أصحابه ، إذا أرادوا إقناع الناس به ، عمدوا إلى الحذلقات الكلامية ، وإلى اللعب على الألفاظ والمعاني ليربطوه أو يبرروه بالفكر الذي تؤمن به الجماهير ، مستغلين ضبابية الفكر الجماهيري ، ليحرِّفوه هو الآخر ، لعلهم يتمكنون من إجراء التوفيق الضروري .

أما الفكر الجديد ، فهو بكل بساطة ، الفكر المرجع ، وأعني به الإسلام .

ولمتسائل أن يتساءل : وهل الإسلام فكر جديد ؟ أليست بعض الأقطار تطبق الشريعة الإسلامية منذ زمن بعيد متصل بزمن النبوة ؟

والجواب : هو أن الإسلام ليس جديداً ، ولكن الإسلام الممارس بحاجة إلى التجديد . إسلام رسول الله (ص) ليس جديداً بل هو قديم ، ولكن الأزمنة اللاحقة ، حيث أعيد إنتاج الإسلام في طبقات متعددة ، مدّتنا بإسلام بعيد عن عقيدة محمد بن عبد الله (ص) ، إسلام الأمراء والسلاطين والملوك الذين ضربوا بالنظام الدستوري للإسلام عرض الحائط ، كما ضربوا عرض الحائط بالقيم والمثل الإسلامية ، وإذا نحن أمام بقايا تقاليد فقط ، ولا تعزى إلى الإسلام تارة بحق وتارة بغير حق .

فأما المعزوَّة بحق ، فهي بعض الشعائر التي تترجم علاقة الفرد بربه بعيداً عن التأثير على سياسة الحاكمين .

وأما المعزوَّة بغير حق ، فهي أنظمة تطبق الحدود على المساكين فقط ، وتضع الحكام فوق الحدود وفوق الشريعة .

ومن هنا كان الإسلام الجديد المطروح والمطلوب ، هو الإسلام القديم أي الإسلام الأول وليس الإسلام الثاني .

ولكن ، هل يمكن لذلك الإسلام الذي ولد منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة أن يكون قابلاً اليوم للتطبيق ؟

هذا السؤال يستدعي البحث عن القيم التي جاء بها هذا الإسلام أولاً ، ومن ثم إعطاء الجواب .

ففي مسائل التعامل مع الأعداء ، وهو ما يهمنا في هذا المقام ، حمل الإسلام قيم القتال والصبر ، واعتبر الشهادة إحدى الحسنيين . فهل هذا يتنافى مع روح العصر الحديث ؟

هل الأمم التي فرضت علينا هيمنتها وثقافاتها ، انتصرت بغير هذه القيم ؟

وهل حصل أن هزمت هذه الأمم أمام قوى أقل منها عدداً بخمسين مرة مثلاً أو بأكثر من ذلك ؟

على أن الإسلام لم يأتنا بطرح نظري حول هذه القيم ، فاكتفى مثلاً بأن أمرنا بأن نصبر ونصابر ونرابط فتغلب المائة منا مائتين على الأقل من أعدائنا ، بل هو حمل إلينا التجارب العملية التي تثبت ذلك .

فالدين الحنيف لم ينتصر على أكبر القوى العالمية في القرن السابع الميلادي إلا بفضل الإيمان بالقيم المذكورة وترجمتها عملياً . ثم أن هذه القيم بدأ اختبارها من جديد اليوم ، وهي تعطي نتائج طيبة ، وإن تكن ممارستها ما زالت تتم في أضيق نطاق .

وعلى أساس هذا فقد رأينا ، للأسباب التي ذكرناها ، وإسهاماً منّا متواضعاً في المعركة ، التي نرى أن من واجب جميع العرب والمسلمين أن يشاركوا فيها لمحو العار الصهيوني ، أن نقوم ببلورة بعض القيم التي حملها المؤمنون في جيش الرسول (ص) وأن نكشف عن طرائق تحقيق وترجمة تلك القيم عملياً على الأرض ، فنلقي الضوء على شكل ومضمون الجهاد الذي كان يحقق المعجزات .

ولأن معركتنا الأساسية اليوم مع اليهود ، فقد رأينا أن نتصدى لحلقة من تاريخ حربنا معهم ، لأن حلقة كهذه تكشف لنا عن الأسلوب الجدي في قتال هؤلاء القوم ، الأسلوب الذي استخدمه الرسول (ص) ، في ظروف ليست معدومة الشبه بظروفنا الحاضرة .

فاليهود في خيبر كانوا قوة كبيرة نسبياً ، متماسكة ، محصنة مسلحة أفضل تسليح ، توفرت لها قيادات كفوءة . وهم اليوم في وضع شبيه ، فهم يحشدون جيشاً غير قليل ، وهم متماسكون حول أهدافهم الأساسية ، وإن اختلفوا أحياناً حول السياسات الظرفية ، وهم مسلحون أفضل تسليح ، ومحصنون داخل الأسلاك المكهربة ووسائل الإنذار المبكر وأحدث أجهزة الرادار .

وهم كانوا يتحالفون مع قوى عربية بدوية وحضرية ضد المسلمين العرب ، على أساس من التلاقي المصلحي ، حيث كانوا يستقوون ببعض العرب في معاركهم الخاصة ، ويستقوي بهم هؤلاء العرب عند الضرورة ضد أبناء جلدتهم .

واليوم يقوم وضع شبيه ، فإن كانت المصالحة بين الأنظمة والعدو لم تكتمل ، إلا أن التحالف بين اليهود وبعض العرب هو في حكم المؤكد ، ولو لم يكن معلناً . ذلك أن الفريقين يهبان معاً ، أو بالتناوب ، لضرب أي اتجاه تحرري حقيقي ، ولسنا بحاجة لذكر الأمثلة .

ولقد انتصر الرسول (ص) على اليهود وقضى على نفوذهم في كل الجزيرة العربية ، فهل

يستطيع المسلمون اليوم أن يقفوا أثر الرسول (ص) وقادته العظام ليمحوا العار الصهيوني . أم أن التفوق التكنولوجي الصهيوني الحالي والمرتقب سيغلب إرادة التحرير وستموت المقاومة ؟

أن دراستنا لوقعة خيبر يمكن أن تسمح لنا بإعطاء جواب ، وهو سيكون جواباً مشروطاً . ولكن الشروط لا تعدو كونها تحدياً للمقاومين وللمترددين . ومعانقة التحدي ستسمح في النهاية بتحقيق النصر ، على الرغم من كل التهافت الذي نلاحظه في الساحة . ، وعلى الرغم من كل أشكال الإستسلام ، المعلن والضمني والصاخب والخجول ، والمعجل والمؤجل الذي ينتاب الساحة العربية في الظروف الراهنة .

على أن توقعنا النصر وعلى الأساس المشروط ليس رجماً خالصاً بالغيب ، ولكننا نؤمن أنه وعد إلهي حمله إلينا الكتاب الكريم في سورة الإسراء ولا مبدل لكلمات الله .

الوعد الإلهي :

ينبئنا كتاب الله عزَّ وجلّ (**قضي إلى بني إسرائيل انهم سيفسدون في الأرض مرتين وسينالون العقاب الشديد على أيدي عبادٍ لله أشداء يدخلون المسجد ويذلونهم ويسؤون وجوههم**)[1] . وقد تحقق الوعد الإلهي في المرتين المذكورتين .

ففي المرة الأول : تُوِّج إفساد بني إسرائيل في الأرض بقتلهم النبي (اشعيا) فسلط الله عليهم بختنصرّ واتباعه وكانوا أهل بطش بالحرب ، فأخذوا يطلبونهم في وسط الديار ، فقتلوا الكبار وسبوا الصغار واحرقوا التوراة المتداولة وخربوا الهيكل (أو المسجد) ولكن الله اعاد لبني إسرائيل الكرة على اعدائهم عندما ساندهم الملك الفارسي كورش الذي ردهم إلى الشام بعد أن سدد ضربة إلى بختنصر .

أما المرة الثانية : التي تحقق الوعد فيها فكانت بمناسبة قتل يحيى بن زكريا الذي بقي دمه يغلي فسلط الله عليهم الحكام الذين قتلوا منهم ألوفاً وسبوا ذراريهم وضربوا بيت المقدس .

هذا وينبئنا القرآن أيضاً أن عقاب بني إسرائيل على إفسادهم واستكبارهم اصبح سُنَّة من السنن الإلّهية ، بحيث أنه كلما تحققت الأسباب - لا بد أن تتلوها النتيجة وذلك في قوله عزَّ وجلّ : (**وإن عدتم عدنا**)[2] .

واليوم تحققت الأسباب على يد الدولة اليهودية المفسدة في الأرض والمستكبرة التي شردت المسلمين من ديارهم وانتهكت مقدساتهم وكانت مخلب قط للإستكبار العالمي يستخدمه لإذلال المسلمين وسائر المستضعفين في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . لذلك فلا بد أن يفرض الله عليهم النكّال ، فهل يكون المسلمون اليوم هم الأداة التي سيستخدمها الله تعالى لإنزال العقاب ببني اسرائيل ؟

إن الأمر متروك لإختيارنا نحن الذين الهم الله نفوسنا فجورها وتقواها ، وهدانا النجدين . فإما أن نستسلم للخزي دون أن نؤثر في سنة الله ، وأما أن نقوم بتكليفنا الشرعي بمقاومة اولئك الذين اعتدوا على الإسلام والمسلمين عسى أن ينكل بهم الله بايدينا .

وأياً يكن الأمر ، فلنبدأ مع الرسول العظيم (ص) في معركته مع اليهود مبتدئين بمقدماتها الضرورية والله نسأل أن نستطيع تحقيق ما نصبو إليه .

الفصل الأول

استراتيجية الرسول في المعركة مع قريش والعرب وأهل الكتاب :

تمثلت الإستراتيجية التي أخذ الرسول على عاتقه تنفيذها عندما كلف بالتمهيد للدين الجديد ونشره ، بالدعوة ومحاولة الإقناع . وكان عليه أن يبدأ بحلقة ضيقة ، ثم ينطلق إلى الحلقات الأوسع فالأوسع ، على طريقة ما يحدثه رمي الحجر في الماء . وفي المرحلة اللاحقة ، يصبح التصدي العسكري الدفاعي وارداً ، ثم أخيراً العمل القتالي الهجومي ، كل ذلك بطبيعة الحال إلى جانب التبشير بالعقيدة الجديدة .

وقد كانت الشعوب القاطنة شبه جزيرة العرب مختلفة لجهة العقائد الدينية ، وموزعة بين الوثنيين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى . وكذلك لجهة نمط المعيشة ، حيث تتجاور التجمعات الحضرية ، كالمدن التجارية ، والمناطق الريفية والزراعية ، وكذلك التجمعات البدوية ، ولذا فقد تنوعت اساليب الدعوة ومضامينها الإعلامية من جهة ، وأساليب التصدي العسكري من جهة أخرى حسب مقتضيات الأحوال .

فالدعوة التي جاءت تنفيذاً لأمر إلّهي بدأت بالعشيرة الأقربين ، ثم توسعت لتشمل سائر قرابته وأهل مكة ثم الجوار ومن يفد إلى الحج ، استمرت فيما بعد الهجرة مترافقة مع العمل العسكري الذي لم يكن إلا وسيلة لنشر الدعوة ، والدفاع عن النفس والعقيدة ، ولم يكن مقصوداً لذاته ، ذلك أن أية عملية عسكرية ، إن لم تكن حصلت للإقتصاص ، كانت تسبقها الدعوة إلى اعتناق الإسلام . ولعل من يراجع القرآن الكريم يلمس ذلك بسهولة قصوى ، كما يلمسه من يقرأ سيرة الرسول ، الذي كان يوصي قادته بدعوة الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا نطقوا بها منعوا بها دماءهم وأموالهم .

والدعوة كانت تخاطب الوثنيين انطلاقاً من الفطرة الإنسانية ، وتدعوهم إلى التأمل في خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان ، وتطلب إليهم أن يضعوا ما اتخذوه من دون الله من آلهة ، على المحك ليروا إن كانت تمتلك لهم نفعاً أو ضراً .

أما أهل الكتاب ، فكانت تنطلق من عقائدهم الحقيقية وتفنِّد ما لحقها من زيف وتحوير وتشويه كشفها الله تعالى في كتابه الكريم .

أما العمل العسكري فكان بمواجهة قريش يهدف إلى جذبهم إلى الإسلام والتحلي بالصبر على تحمل أذاهم بقصد الإبقاء عليهم ما أمكن ومحاولة إعزاز شأنهم ، وذلك على ما يبدو لسببين :

أولهما : أنهم معذورون نوعاً ما لعدم سبق بعث الرسل إليهم حسب علمنا .

وثانيهما : موقع مكة الإستراتيجي سياسياً واقتصادياً ، والأهم من ذلك إشتمالها على بيت الله الحرام وعدم جواز سفك الدم فيها إلا في حالة الضرورة القصوى(٣) .

وبمواجهة الأعراب ، كان العمل العسكري ، يهدف إلى أخضاعهم إن لم يسلموا ، وردعهم عن التعدي على المسلمين ، ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى القتال والقتل وسبي الذراري علاوة على اغتنام الأموال .

أما بمواجهة أهل الكتاب ، فكان عمل الرسول (ص) العسكري يستهدف أحد غرضين :

* إما إخضاعهم وجعلهم في ذمة المسلمين على أن يدفعوا الجزية في حال قبولهم بهذا ، وذلك منعاً لأذاهم .

* وإما ، وفي حالة رفضهم ، وإصرارهم على الكيد ، قتالهم والقضاء عليهم أو الإستيلاء على أملاكهم .

هذه التكتيكات المختلفة طبقها رسول الله (ص) حسب مقتضيات الظروف أثناء الثلاث والعشرين من السنين التي قضاها مجاهداً في سبيل نشر الدين الحنيف وترسيخه حتى دانت جزيرة العرب كلها بالإسلام قبل وفاته (ص) وخضع من فيها من أهل الكتاب لحكم المسلمين سواء منهم نصارى نجران أو يهود خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء .

إلا أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير ، فقد كلف من الدم والعرق مما لا قبل به إلا للمؤمنين الذين نذروا أنفسهم وأبناءهم وأموالهم في سبيل مرضاة الله وتنفيذ أوامره ، وآثروا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ، فكانوا يتسابقون إلى الشهادة باعتبارها الفوز الكبير الذي لا يدانيه فوز .

على أن أهم المجهودات والتضحيات كانت ما يذل في مواجهة قريش ومواجهة اليهود . ذلك أن المعركة مع الأعراب ومع النصارى كانت سهلة نسبياً ، لأن التجمعات البدوية كانت تتكون من قبائل متفرقة تقاتل كل منها منفردة ، فكانت سرايا المسلمين تتكفل بتأديبها ، إلا في حالة الضرورة القصوى حيث كان الرسول (ص) يقود الغزوات بنفسه .

أما النصارى ، فإما أنهم لم يكونوا على شيء يذكر من القوة العسكرية ، وإما أنهم كانوا لا يشكلون تهديداً مباشراً للمسلمين . ثم أن مناطق إقامتهم في نجران أو على الطرف الشمالي للجزيرة العربية وإن كانت ذات أهمية استراتيجية غير عادية ، إلا أن المنطقة الأولى كانت

تسكنها قوة بسيطة نسبياً ومعزولة إلى حد ما . أما المناطق الأخرى المحاذية للشام وللعراق ، فكانت معالجتها جزءاً من استراتيجية التوسع إلى خارج الجزيرة على الأرجح .

أما قريش فقد استمرت حرب الرسول (ص) معها منذ انبثاق الدعوة وحتى فتح مكة ، وقد عرفت أشهر المعارك التي رواها تاريخ الإسلام على الإطلاق : معركة بدر ، معركة أحد ، معركة الخندق ، غزوة الحديبية الخ ...

وباسلام قريش أو استسلامها حسم الرسول (ص) معركة جزيرة العرب ، فدانت له بعد فترة وجيزة من أقصاها إلى أقصاها .

أما اليهود ، فقد حاول الرسول أن يحيدهم في البداية ، ولكنهم ما لبثوا أن لجأوا إلى التآمر بشكل منفرد حيناً وبالتنسيق مع قريش وبعض تجمعات الأعراب حيناً ، الأمر الذي أدى إلى نشوب أربع معارك بينهم وبين الرسول (ص) ، ثلاثة منها في منطقة المدينة ، والأخيرة في خيبر وما جاورها لجهة الشام ، ففي المعارك الأولى استهدف الرسول (ص) التخلص من طابور خامس كان يشكل رصيداً جاهزاً ، يمكن لأعدائه أن يستفيدوا منه في أية معركة ، سواء نشبت في جوار المدينة أو بعيداً عنها .

أما المعركة الأخيرة فكانت حرباً وقائية استهدفت القضاء على تهديد قائم بات يشكل تحدياً فكرياً وعسكرياً على درجة كبيرة من الخطورة .

وفي بحثنا هذا سوف نتناول المعركة الأخيرة مع اليهود ، وقعة خيبر وما اسفرت عنه من نتائج .

الفصل الثاني

يهود الجزيرة العربية :

مع بداية الدعوة الإسلامية ، كانت تجمعات يهودية هامة تقطن شمالي الحجاز امتداداً باتجاه الشام ، وتحديداً في منطقة المدينة وإلى الشمال منها في خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء ، حيث يسيطرون على مناطق زراعية ذات أهمية كبيرة ، ويتمتعون بقوة عسكرية غير عادية ، ذلك الوقت في جزيرة العرب . والسؤال الذي طرح بخصوصهم وأثار الكثير من الجدل دون أن يحسم هو ماله علاقة بأصلهم ، هل هم من سكان تلك المناطق أم هم قدموا من أماكن أخرى . وأجوبة الباحثين تنحصر في هذا المجال في زمرتين : الأولى تعتبر أنهم قدموا من بلاد الشام . وخاصة من فلسطين بعد خراب الهيكل على يدي تيتوس الروماني . والثانية ترى أنهم من جزيرة العرب أصلاً .

أما اولئك الذين يعتقدون أن اليهود قدموا من بلاد الشام ، فيعتمدون على أن بني إسرائيل كانوا يقيمون في فلسطين وحدها ، وأنه بعد حملة الرومان ضدهم وتدميرهم الهيكل

هاجرت جموع غفيرة من اليهود إلى مختلف البلدان المجاورة ومنها جزيرة العرب[٤] .

ويزعم آخرون أن اليهود نزحوا إلى جزيرة العرب بمناسبة السبي ، حيث تفرق بنو اسرائيل ونزل بعضهم ارض الحجاز ، في يثرب ووادي القرى وغيرها[٥] .

وهناك رأي ثالث يقول : إن النبي موسى (ع) وجه ، قبيل وفاته ، جيشاً لقتال العمالقة في منطقة يثرب بعدما أخذوا يشنون الغارات التي وصلت بلاد الشام ، واستمر الجيش اليهودي في قتالهم ومطاردتهم فترة من الزمن ، فقتلهم جميعاً إلا إبن ملكهم ، ثم عاد الجيش بعد وفاة النبي موسى (ع) إلى بلاد الشام ، ولكن اليهود تنكروا له واعتبروه من العصاة ، الذين لم يلتزموا بتعاليم الدين ، إذ أنهم أبقوا على أسير واحد من العمالقة كما رأينا ، ولم يقبلوهم لهذا السبب بين ظهرانيهم ، الأمر الذي اضطرهم إلى العودة إلى يثرب التي كانوا طهروها من العمالقة ، فأقاموا فيها[٦] .

غير أن بعض المؤرخين يذكر أن حملة اليهود على يثرب ، إنما تمت في عهد داوود وليس في عهد موسى (ع)[٧] .

ويرد أصحاب الرأي الآخر الذي يرى أن يهود الجزيرة العربية لم يفدوا من خارجها ، ويعتبرهم من السكان الأصليين لجزيرة العرب ، وليس ضرورياً أن يكونوا من بني اسرائيل النازحين من فلسطين ، وذلك لأن عاداتهم وتقاليدهم لا تختلف عن عادات العرب وتقاليدهم ، ويعزز هذا الرأي علاقات المصاهرة التي كانت قائمة بينهم وبين العرب .

وهنا قد يعترض البعض معتبراً أن الديانة اليهودية كانت محصورة في بني اسرائيل ، ولم تكن مفتوحة للأمم والشعوب الأخرى .

ورداً على هذه النظرية ، يذهب أصحاب نظرية الأصل العربي (جغرافياً) لليهود ، إلى أن هؤلاء ليسوا فعلاً كذلك ، لأن اليهود كانوا يقومون بالتبشير منذ كتابة التوراة حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، الأمر الذي سمح لشعوب أخرى أن تعتنق هذه الديانة .

وقد انتشرت اليهودية في اليمن ، في مملكة سبأ ومن ثم مملكة حمير في عهد الملك تبان أسعد أبو كرب في القرن الخامس الميلادي . وترسخت في عهد الملك ذي نواس ، في أوائل القرن السادس ، وهو الذي حاول إجبار المسيحيين على اعتناق اليهودية ، وعندما امتنعوا ، حفر لهم الأخدود المشهور واحرقهم ورماهم فيه ...

ثم أنه إذ اصبحت نظرية الدكتور كمال الصليبي القائلة بأن بني اسرائيل كانوا يقيمون في جبال السراة من منطقة عسير وأن حكمهم كان هناك ، لا يعود مستبعداً أن يكون يهود يثرب وجوارها يرجعون في أصلهم إلى تلك المنطقة القريبة .

وفي مطلق الأحوال ، وإلى أن يبت المؤرخون بهذه المسألة ، فإن ما نستطيع تأكيده هو أن

هؤلاء اليهود هم فئة إجتماعية سياسية إقتصادية متميزة ، وأنهم كانوا يتكلمون العربية ، بدليل بروز بعض شعراء العربية من بينهم كالسموأل بن عادياء وغيره ، وبدليل ما نسب من رجز لفرسانهم أثناء معركة خيبر ، مما حملته كتب التاريخ والسير . غير أن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا يتكلمون لغة أخرى غير العربية ، بل هم فعلاً كانوا يتكلمون لغة خاصة وسنرى أن ابن عتيك كان « يرطن » بها .

هذه الفئة المتميزة كانت تشكل التحدي الأكبر للرسول (ص) . وذلك يعود إلى تماسكها النسبي وقوتها العكسرية والإقتصادية ، من جهة ، وإلى كونها تحمل عقيدة دينية خاصة كانت تعتبر أرقى وأكثر جدية من العقائد الدينية المنتشرة في شبه الجزيرة العربية ، بما فيها النصرانية التي كانت تعاني من التمزق والخلافات العقائدية والتناصر والتذابح .

وضع اليهود مع فجر الهجرة :

في زمن هجرة الرسول لله (ص) كان اليهود يقطنون في المنطقة الممتدة من يثرب حتى مشارف بلاد الشام ، وهي منطقة استراتيجية يمكنها أن تشكل جسراً يصل سوريا ، التي كانت تحت حكم الروم ، إلى قلب المناطق الهامة من الجزيرة العربية ، ولما قدم الرسول الله (ص) إلى المدينة حاول أن يقيم عهداً مع اليهود ، كما مع سائر قبائل المدينة . وقد جاء في الصحيفة التي حوت العهد ، فيما خص اليهود ما يلي :

« من أتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » . أما سائر اليهود فهم « ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؟ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم » .. وإن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة . ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته . وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الإثم ، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (ص) ، وإنه لا ينحجز عن نارِ جُرْح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته (إلا من ظلم) وإن الله على أبرِّ هذا (أي الرضا به) . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ... وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلّا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (ص) . وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنّهم

يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة »(٩) .

والذي يلفت النظر في هذه الصحيفة أنه قد ورد يهود فيها منسوبون إلى البطون العربية في المدينة وجوارها ، ولعل تفسير ذلك أن اليهود المتحالفين مع هذه البطون ، أي مواليهم المقيمين داخل المدينة قد شملتهم الصحيفة .

أما القبائل الأخرى ، الكبرى ، القنيقاع والنضير وقريظة ، المقيمون على مقربة من يثرب ، التي تذكر بالاسم فإنها مشمولة بالنص العام القائل : وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » . وكذلك بالنص القائل : « وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » . وذلك خلافاً لما قد يتراءى من أن القبائل المشار إليها لم تكن معنية بالصحيفة على ما نرجح . ذلك أن تجاهل الصحيفة لهذه القبائل كان يمكن أن يترك لها حرية الحركة ، الأمر الذي يسمح لها بتهديد أمن الجماعة الإسلامية في المدينة عن طريق تحالفهم مع أعدائها .

وفي مطلق الأحوال فإن الوفاق مع يهود القبائل الثلاثة الكبرى المذكورة لم يستتب بشكل صحيح حيث أخذوا يواجهون الإسلام والمسلمين بحملة إعلامية تقوم على التعريض والسخرية من وقت مبكر بعد هجرة الرسول (ص) إلى المدينة ، كما أخذوا يكيدون لهم ، الأمر الذي جعل منهم قوة تهديد للمسلمين ، تقيم على مقربة منهم وتشكل نصيراً جاهزاً لأي عدو يهاجمهم بقصد القضاء عليهم .

وقد كان الرسول (ص) ، بالإضافة إلى هذا ، واضحاً لديه بالتأكيد ، أن أهل الكتاب لا بد أن يسلموا أو يرضخوا بشكل أو بآخر ، فهو (ص) كان يدرك منذ وقت مبكر ، أن المعركة معهم في سبيل ذلك لا بُدّ آتية . وقد أخذت الظروف تتهيأ لذلك . غير أن الرسول (ص) لم يفتح المعركة مع اليهود دفعة واحدة ، بل قاتلهم في مرحلة أولى ، في يثرب ، حيث كان يهاجم كل قبيلة منفردة ، وهكذا فقد أجلى بني القينقاع ثم بني النضير وأخيراً ضرب بني قريظة .

وقد كان أسلوب الرسول (ص) يقضي بأن تقوم له الحجة على اليهود عن طريق قيامهم بالإعتداء على المسلمين أو ربما تهربهم من القيام بواجباتهم .

فأبان معركة بدر ، في السنة الثالثة للهجرة ، لم ينصر اليهود المسلمين بل كادوالهم وفي ذلك تنكر ظاهر لبنود الصحيفة . وحاول الرسول (ص) أن يعطيهم الفرصة الأخيرة ، مظهراً لهم ما حل بقريش ، فدعاهم إلى الإسلام ليأمن جانبهم إلا أنهم ردوا عليه بالتحدي . ثم حصل أن اعتدى يهود من القينقاع على امرأة أحد الأنصار(١٠) ، فانتصر أحد المسلمين لها وقتل اليهودي المعتدي فما كان من اليهود إلّا أن قتلوا الرجل المسلم ، عند ذلك هاجمهم

الرسول (ص) وحاصرهم .

ولما استسلموا ضغط المنافق عبد الله بن أبي بن سلول من أجل إنقاذ أرواحهم ، فاكتفى الرسول (ص) بأجلائهم عن المدينة ، فتوجهوا إلى وادي القرى ثم إلى أذرعات من بلاد الشام[١١] .

وأثناء معركة أحد ، ثارت الشكوك حول تآمر بني النضير مع قريش ضد المسلمين[١٢] ثم تت حادثة الرجلين من بني عامر بن صعصعة ، حلفاء بني النضير ، وقد كانا يحملان عهد سلم وجوار من رسول الله (ص) ، وقد قتلهما عمرو بن أمية - من المسلمين - دون أن يعلم بالعهد فتوجه الرسول (ص) ، فيمن توجه إليهم ، إلى بني النضير ، ليسألهم عن كيفية دفع الدية عندهم ؛ ذلك أنه كان قرر أن يدي الرجلين وهما من حلفائهم[١٣] ، وقيل أنه توجه (ص) إليهم ليساهموا في دفع الدية على أساس أن الإتفاق معهم يقضي بأن يساعدوه في دفع الديات[١٤] .

وإبان وجود الرسول عند بني النضير، حاول هؤلاء إغتياله، ولكنه اكتشف الأمر، فما كان منه إلا أن هاجمهم في ربيع الأول من سنة أربع وحاصرهم ست ليالٍ ، كان يمنيهم خلالها عبدالله بن أبي بن سلول بالمساعدة، وأخيراً استسلموا، فأجلاهم الرسول، فنزحوا إلى خيبر حيث تحول قادتهم سلام بن شكم وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب إلى زعماء لتلك المنطقة ، وذلك لأنهم من أكثر يهود الجزيرة العربية مالاً من جهة ، ولأنهم يدعون الإنتماء إلى اللاويين ، قبيلة هرون وموسى من جهة إخرى .

وفي معركة الخندق لجأت القبيلة اليهودية الباقية في منطقة المدينة ، بنو قريظة ، إلى التآمر مع قريش وكان الإتفاق يقضي عند بدأ القتال أن يقوم بنو قريظة بمهاجمة المسلمين من الخلف ، ولكن الخطة أحبطت بواسطة مكيدة حاكها نعيم بن مسعود الغطفاني الذي أسلم سراً واستطاع إقناع كل من قريظة وقريش بعدم إخلاص الطرف الآخر للخطة .

فلما فرغ الرسول من معركة الخندق في سنة خمسة للهجرة ، هاجم بني قريظة وحاصرهم ، ولما تمكن منهم ، ضرب رقاب الرجال وسبى الذراري والنساء وغنم الأموال جزاء لهم على تآمرهم وتنكرهم لبنود الصحيفة .

هذه المعارك أسفرت عن تحرير المدينة وجوارها بشكل نهائي وقضت وإلى الأبد على الخطر الجاثم على حدودها ، غير أن المعركة مع اليهود لم تنته ، فقد استمر وجودهم في المناطق الواقعة إلى الشمال من المدينة ، ابتداءً من خيبر باتجاه بلاد الشام ، وكانوا يشكلون خطراً مستمراً بسبب إمكانية استخدامهم جسراً للروم يعبرون عليه إلى المدينة كما يمكن أن يكوّنوا مع أهالي مكة ، فكي كماشة تمسك بجانبي المدينة من الشمال والجنوب .

ولم يكن اليهود وهؤلاء لينتظروا مبادرة الرسول للهجوم عليهم ، بل عمدوا إلى محاوله

لتحزيب الأحزاب مرة أخرى ضد المسلمين[١٥] ، وكانت وقعة خيبر الشهيرة والتي سنتناولها في هذه الدراسة .

معركة الرسول (ص) مع يهود الشمال :

بعد أن حرر الرسول (ص) المدينة من التهديد اليهودي الجاثم على أطرافها ، استقر الوجود اليهودي قوياً إلى الشمال ، في المناطق التي كان نزح إليها بنو القينقاع (ربما مؤقتاً) وبنو النضير ، وانضموا إلى سكانها .

ومن خيبر انطلق زعماء بني النضير في حملتهم لتحزيب الأحزاب لغزوة الخندق ، وهم الذين وعدوا الأعراب بمحصول خيبر لسنة كاملة إمعاناً في إغرائهم لقتال المسلمين .

وبعد فشل حملة الأحزاب لغزو المدينة واستئصال شأفة الإسلام والمسلمين ، لم يستكن زعماء النضير ، بل عادوا إلى محاولة تأليب الأعراب من جديد ، وأخذ زعماؤهم يختلفون إلى غطفان بشكل خاص ، ولعل السبب كان أن هذه القبيلة (أو القبائل) كانت أول من سارع إلى الإنخذال في معركة الخندق ، لذلك اقتضى الأمر مزيداً من الصبر والإصرار من أجل إقناعهم وضمان عدم نكوصهم في أية معركة مقبلة ، وكان الإغراء بالمال هو الوسيلة الأساسية في الخطة ، وهو الأسلوب الذي كان اليهود ، وما زالوا يجيدونه بشكل لا يدانيهم فيه أحد .

غير أن الرسول (ص) ما كان لينتظر نجاح مساعي زعماء اليهود ، بل سارع إلى ضربهم بقوة لكي يفشل خططهم[١٦] . إلا أن الضربات الوقائية المحدودة التي سددها إليهم قبل غزوة الحديبية ، لم تكن لتكفي لدفع خطر اليهود الذين كانوا ، إلى جانب عداوتهم الدينية للإسلام ، وخوفهم على وضعهم الإقتصادي المتميز ، قد وُتروا بإخراج قبائل منطقة المدينة وضربها ؛ وربما هم خافوا إن لم يثأروا أن يؤول الأمر إلى القضاء عليهم بشكل نهائي .

لكل هذه الأسباب إذاً ، ولكي لا يتسع المجال لليهود ليهاجموا المدينة ، توجه الرسول (ص) إلى خيبر لإنزال الضربة القاضية والنهائية بهم ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية ، حيث قرر الرسول (ص) سحق القوة الرئيسية الأكثر تماسكاً والأصلب عقائدياً ، والتي تستطيع أن تشتري الأعراب ، وتستفيد من قريش في المعركة ، التي تعتبرها معركتها الخاصة مع الرسول لا معركة غيرها .

فقد كان اليهود يدركون جيداً ، كما كان الرسول (ص) يدرك أيضاً أن المعركة بينهم وبين المسلمين ستكون معركة فاصلة ، لا على صعيد منطقة المدينة وخيبر ولا على صعيد شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل على الصعيد التاريخي والإنساني بشكل عام . لأن الذي سيحقق النصر سيزيل نفوذ الآخر ، وربما وجوده كله .

فإذا انتصر الرسول (ص) فإنه سيواصل معركته للإستيلاء على فدك ووادي القرى

وتيماء ، للتخلص من اليهود بشكل نهائي ، لإجتثاث خطرهم الخاص من جهة ، ولحرمان الروم ، إذا ما فكروا بالقيام بعمل عسكري ضد المسلمين ، من إمكانية الإستفادة من هذا الجسر للوصول إلى قلب الحجاز .

وإذا كان هذا الإحتمال يبدو بعيداً في ذلك الوقت ، نظراً لما كان بين اليهود والمسيحيين من عداء ، فإن كيد اليهود وتشبثهم بامتيازاتهم الإقتصادية وبعقائدهم الدينية المصلحية ، كان يمكن أن يدفعهم إلى تجاوز كل اعتبار من أجل القضاء على الدين الجديد . وهذا ما أكده التاريخ الحديث ، حيث تحالف اليهود مع الغرب الذي حل محل الروم القدماء ، ليثأروا من الإسلام والمسلمين .

وفي مطلق الأحوال ، فإن انتصار الرسول (ص) في المعركة سيسمح للإسلام بأن ينطلق ، وينتشر في كل جزيرة العرب أولاً ، ثم في خارجها فيما بعد ، خصوصاً وأن في هذه الجزيرة من المخزون البشري ما يمكن أن يشكل قوة جبارة ، وهي التي اعتادت على إطلاق الموجات البشرية الهائلة ، التي استوطنت مناطق الهلال الخصيب ومناطق شرق أفريقيا .

أما إذا انتصر اليهود فإنهم بطبيعة الحال ، لن يقصروا معركتهم على دفع المسلمين عن خيبر ، بل هم لا بد أن يوظفوا نصرهم للعودة إلى المدينة والقضاء على الإسلام بشكل نهائي .

وفي هذه الحالة الثانية تتكرس المزاعم اليهودية بانحصار النبوة في بني إسرائيل . أما في الحالة الأولى فسيكرس الإيمان بمغادرة النبوة لليهود وإلى الأبد ، الأمر الذي يشكل ضربة عقائدية مدمرة لهم .

والمعركة في خيبر وأن كانت كاسحة في نظر المسلمين واليهود ، إلا أن الإهتمام بها كان يتجاوز القوتين اللتين تستعدان للقاء ؛ فقريش ، وهي العدو الآخر للإسلام ، كانت تعلق على هذه المعركة الآمال العريضة ، فقد كان أهل مكة يتراهنون حول نتائج القتال ، وما تهافتهم على الحجاج بن علاط السلمي ، المقبل إلى مكة ، مع توارد الأخبار عن المعركة الأخيرة الآخير دليل على ذلك .

فقد حصل عندما وصل هذا الرجل إلى مشارف مكة ، أن سارع إليه الناس الذين كانوا ينتظرون الركبان ليرووا غليلهم إلى معرفة ما يجري ، والتصقوا بجنبي ناقته ، ولشد ما كانت فرحتهم عندما أخبرهم بأن المسلمين « قُتلوا قتلاً لم يروا مثله وأن الرسول (ص) قد أسر ، وأن اليهود تشاوروا بشأنه ، فقرروا إرساله إلى مكة ليقتص فيه أهلها ، ولم يقتلوه لكيلا يستعدوا قريشاً على أنفسهم(١٨) .

وكان الحجاج قد استأذن الرسول قبل أن يتوجه إلى مكة لتحصيل أموال له عند بعض تجارها في أن يقول هناك ما يراه مناسباً . وكان قد أسلم ، فحاول الإسراع قبل أن ينتشر خبر إسلامه .

وإذا كانت غزوة خيبر على هذا القدر من الأهمية من الوجهة التاريخية ، فإنها على الصعيد العسكري البحت لم تكن قليلة الأهمية ، وهذا ما سيظهر جلياً في دراستنا لموقع المنطقة بالنسبة إلى المدينة وللتحصينات التي أقيمت فيها ، وأخيراً لسير المعارك التي جرت بين شعابها وحول قلاعها .

أرض المعركة :

تبعد خيبر عن المدينة حوالي مئة ميل ، وهي أكبر واحة في شبه جزيرة العرب على الإطلاق ؛ ويتبين من الخريطة التي أعدها لها دوتي(١٩) أن مساحتها تفوق العشرة آلاف كيلو متراً مربعاً . ولكن سيطرة الإسلام لم تقتصر على هذه المساحة ، بل هي تجاوزت خيبر لتشمل فدكاً ووادي القرى وتيماء ، فدانت للرسول (ص) منطقة شاسعة « حُد منها جبل أحد وحد منها عريش مصر ، وحد منها سيف البحر وحد منها دومة الجندل(٢٠) » ، استولى عليها المسلمون وأخضعوها لسلطانهم وسيطروا على أرضها الزراعية التي تكوِّن ثروة هائلة إذا ما قيست بالإمكانات الزراعية المتوفرة في جزيرة العرب فقد أحصيت أربعون ألف شجرة في منطقة النطاة وحدها ، وهي الأصغر بين المناطق الثلاث التي تتكون منها خيبر ، فقد وزعت النطاة هذه إلى خمسة أسهم ، فيما وزع الشق ـ المنطقة الثانية ـ إلى ثلاثة عشر سهماً ، وبلغ مجموع النطاة والشق نصف خيبر ، بينما شكلت الكتيبة نصفها الآخر ، ولهذا فقد كانت خيبر تعتبر ريف الحجاز وبالإضافة إلى الثروة الزراعية ، فقد شكلت هذه المنطقة مستودعاً للتجارة اليهودية ، بعد أن أُجلي يهود يثرب واستقرَّ بعضهم فيها ، كبني النضير مثلاً(٢١) .

أما على صعيد الجغرافيا الطبيعية ، فقد وصفها دوتي(٢٢) بأنها مجموعة من الوديان الفسيحة كثيرة المياه ، وهي مجتمعة على هيئة جريدة النخل ، على حافة حرة بركانية ، تسير جميعها بحيث تلتئم في وادٍ كبير واحد . والواحة على ارتفاع ثلاثة آلاف وثمانماية قدم فوق سطح البحر ... وينابيعها فيها شيء من طعم الكبريت ، وتحيط بها طبقات من الملح .

والنخيل كثير في هذه الواحة ، وهي حسب وصف جغرافيي العرب القدامى ، ولاية كثيرة الخصب غنية بنخلها وحقول قمحها كثيرة الغلة(٢٣) .

واليهود الذين كانوا يقيمون في هذه المنطقة ، شيدوا فيها عدداً كبيراً من الحصون لحمايتها ذكرت منها دائرة المعارف الإسلامية حصون : ناعم والقموص ، حصن أبي الحقيق ، والشق والنطاة والسلالم والوطيح والكتيبة ووجدة ، وذكرت أن معقلها الأعظم هو حصن القموص الذي فتحه علي بن أبي طالب (ع)(٢٤) وهو حصن أبي الحقيق كما ورد في سيرة ابن هشام .

هذا وقد رسم السيد محمد باشميل(٢٥) توزيعاً للحصون في المنطقة ، حسبما هو وارد في مغازي الواقدي فأوضح أن مدينة خيبر كانت تنقسم يوم فتحها إلى شطرين تقوم فيهما

الحصون والقلاع الحربية واهمها ثمانية : في الشطر الأول يقع منها خمسة وفي الثاني ثلاثة : أما حصون الشطر الأول فمنها ثلاثة في المنطقة المسماة بالنطاة وهي :

١ ـ حصن ناعم ، وهو اول حصن هاجمه المسلمون وامامه قتل مرحب .
٢ ـ حصن الصعب بن معاذ ، الذي كدس فيه اليهود كمية كبيرة من الأسلحة ومن المواد الغذائية .
٣ ـ حصن قلة الزبير (أو قلعة الزبير) .

أما الاثنان الباقيان فيقعان في منطقة تدعى الشق ، وهما :
١ ـ حصن أُبَيّ .
٢ ـ حصن النزار (ويسميه البعض حصن البزاة أو البريء) .

أما الشطر الثاني ويدعى الكتيبة فأهم حصونه ثلاثة وهي :
١ ـ حصن القموص .
٢ ـ حصن الوطيح .
٣ ـ حصن السلالم .

وإذا كانت كتب السير والأخبار لم تحمل لنا وصفاً واضحاً لهذه الحصون ، إلا أن فيها ما بقيت آثاره حتى اليوم ، لا سيما تلك الصخرة الهائلة التي كونت حصن القموص . ويصفها دوتي بقوله إنها : « صخرة عظيمة من البازلت ، ترتفع في وادي الزيدية ، كأنها كتلة من الصخر شاردة ... وقد بلغ طول المصطبة المسورة للحصن مايتي خطوة وعرضها تسعين خطوة ؛ أما ارضها فطبقة من الطين سميكة ولعل بعضها تكوّن من المنشآت الصلصالية القديمة ، التي تراكمت فوق الصخر الوعر » .

هذه الصخرة الصماء من ثلاث جهات والمفتوحة من جهة واحدة كونت الحصن ، وقد سدت الجهة المفتوحة المشار إليها ببناء جدار ضخم يتوسطه باب على شكل قنطرة ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار وعرضه مترين ، وهو مرتفع عن الأرض ولا يمكن الوصول إليه ، إلا بارتقاء درج ملاصق للجدار ، بعرض ستين سنتيمتراً تقريباً . وهو مكشوف من أعلى الحصن ويمكن للمدافعين أن يمنعوا أي مهاجم من ارتقاء الدرج ، بكل سهولة نظراً لكونه لا يتسع عرضاً إلا لرجل واحد ، ثم أنه بعد ارتقاء الدرج لا بد من الإصطدام بالباب الضخم .

وحول الحصن أقيم خندق يمنع الوصول أصلاً إلى جدران الحصن .

وبالإضافة إلى ذلك ، كانت تغطي المنطقة البساتين التي يمكن أن تخفي تحركات المقاتلين وربما تعطيهم حرية واسعة في الحركة ، لا سيما إذا كان الجيش المهاجم قليل العدد كما كانت الحال مع جيش الرسول (ص) .

كل هذا سمح ليهود المدينة أن يخوِّفوا المسلمين من الهجوم على خيبر ، إذ كانوا يقولون

لهم اثناء إعدادهم للمسير : « ما أمنع والله خيبر منكم ، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم : حصون شامخات في ذرى الجبال ، والماء واثن (جارٍ) ، وأن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم »(٢٦) .

الهوامش

(١) الإسراء (٤ ـ ٧) .

(٢) الإسراء (٨) .

(٣) راجع حديث الرسول عندما وقفت به الناقة أثناء مسيره إلى مكة فيما سمي بغزوة الحديبية ، حيث قال : حبسها حابس الفيل ـ روى الحديث ابن شهاب ـ راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٩٨ .

(٤) R. Blachère, Le problème de Mohamed, P. U. F Paris, 1952 P. 21–22.

(٥) الطبري منشورات الأعلمي . ١٩٨٣ . ج ١ ص ٣٨٣ .

(٦) راجع الأغاني ج ٣ ص ١٢ ـ ١٣ .

(٧) السمهودي ، وفاء الوفاء ج ١ ص ١٦٠ .

(٨) راجع التوراة جاءت من جزيرة العرب ص ١٦٠ .

(٩) ابن هشام ، السيرة النبوية دار الجيل ج ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(١٠) السيرة الحلبية ، دار المعرفة ١٩٨٠ ، ج ٢ ص ٤٧٥ . و M. Robinson, Mohamed, Sevil, Paris, 1961.

(١١) R. Blachère op cif P 25.2

(١٢) نفس المرجع ص ١٠٨ .

(١٣) السيرة الحلبية ـ لذكور سابقاً ص ٥٥٩ .

(١٤) سيرة ابن هشام مذكور سابقاً ص ١٠٨ .

(١٥) وكانت المرة الأولى إبان الأعداد لمعركة الخندق .

(١٦) راجع طبقات ابن سعد المجلد الثاني ـ الجزء الأول ص ٥٧ ـ ٦٧ .

(١٧) راجع مغازي الواقدي ـ مذكور سابقاً ، ص ٦٤٠ .

(١٨) راجع سيرة ابن هشام ، مذكور سابقاً . ص ٢٢٣ .

(١٩) Charles. M. Doughty, travels in arabia deserta, London, Monathan– 1936.

(٢٠) وسائل الشيعة ج ٦ ص ٣٦٦ .

(٢١) Desuergers (Noel), L' Arabie P. 17.

(٢٢) مذكور سابقاً .

(٢٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة خيبر .

(٢٤) نفس المرجع .

(٢٥) محمد أحمد باشميل ، غزوة خيبر ـ دار الفكر . ط ٢ ، ١٩٧١ ص ١٣٦ .

(٢٦) مغازي الواقدي ص ٦٣٧ .